مقدّمة

استمرت حرب فلسطين أقل من عشرين شهراً، بدءاً من قرار الأُمم المتّحدة الذي أوصى بتقسيم فلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1947، حتى آخر اتفاقية هدنة، التي جرى توقيعها بين إسرائيل وسورية في تموز (يوليو) 1949. تلك الشهور العشرون حوّلت المشهد السياسي للشرق الأَوسط. والحقيقة، يمكن اعتبار سنة 1949 لحظة فاصلة في تاريخ المنطقة بكاملها. فقد دُمِّرت فلسطين العربية ونشأت دولة إسرائيل الجديدة. وقد عانت مصر وسورية ولبنان من هزيمة ساحقة، وحافظ العراق على خطوطه، وأحرز شرق الأردن في أفضل الأحوال، نصراً باهظ الثمن. وفَقَدَ الرأي العام العربي الثقة بسياسييه، بعد تقبُّله للهزيمة، دَعْكَ عن هزيمة بهذا الحجم. وفي غضون ثلاث سنوات من انتهاء حرب فلسطين، اغتيل رئيسا وزراء مصر ولبنان وملك الأردن، وأُطيح برئيس جمهورية سورية وملك مصر في انقلابين عسكريين. وما من حدث طبع السياسة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين بطابعه بمثل هذا العمق. إن الحروب العربية ـ الإسرائيلية، والحرب الباردة في الشرق الأَوسط وبدء الكفاح الفلسطيني المسلَّح، وسياسات صنع السَّلام بكل تعقيداتها، هي نتائج مباشرة لحرب فلسطين.

تكمن أهمية حرب فلسطين أيضاً في حقيقة أنَّها كانت أول تحدٍّ واجهته دول الشرق الأَوسط حديثة الاستقلال. ففي سنة 1948، كان الشرق الأَوسط قد

تخلّص لتوه من الحكم الاستعماري. ومع أن إسرائيل كانت الدولة الأحدث في المنطقة عندما أعلنت استقلالها في 15 أيار (مايو) 1948 لم يكن جيرانها أكبر منها عمراً بكثير. كانت مصر لا تزال مرتبطةً ببريطانيا في علاقة شبه استعمارية بسبب معاهدة سنة 1936. وأعطت معاهدة سنة 1946 مع شرق الأردن بريطانيا تحكماً واسعاً بشؤون شرق الأردن العسكرية والمالية، إلىٰ حدّ أن الأسرة الدولية استنكفت عن الاعتراف «باستقلاله»، فكان لا بدّ من إعادة التفاوض حول أحكام المعاهدة في كانون الثاني (يناير) 1948. أما لبنان وسورية فقد حصلا على استقلالهما عن فرنسا في سَنَتي 1943 و1946. وحتى العراق، الذي حظي باعتراف دولي بصفته دولة مستقلّة في السنوات بين الحربين العالميتين، دخل في محادثاتٍ سرِّيَّة مع بريطانيا في سنة 1947 لإعادة التفاوض حول معاهدة 1930 بغية تقليص الوجود العسكري البريطاني في العراق «المستقل». إن القادة الوطنيين في العالم العربي، الذين أشرفوا على مرحلة الانتقال إلىٰ الاستقلال، سقطوا عند أول عقبة عندما أخفقوا في أن يكونوا عند أقوالهم البلاغية في إنقاذ فلسطين من التهديد الصهيوني. إن هذا الإخفاق ولّد أزمةً للشرعية في جميع الدول العربية تقريباً.

يلعب التاريخ دوراً رئيساً في تشكيل الدول، وإضفاء الشرعية على أصول الدولة ونظامها السياسي، في الشرق الأَوسط كما في أي مكان آخر. إن حكومات المنطقة تتمتّع بكثير من السلطات المباشرة وغير المباشرة على عمليّة كتابة التاريخ. وكتب التاريخ للمدارس الابتدائية والثانوية يعود أمرها إلىٰ الدولة حصراً. ومعظم الجامعات في الشرق الأَوسط تديرها الدولة كما أن أعضاء هيئاتها التدريسية موظّفون لدى الدولة. وجمعيات التاريخ الوطنية والمطابع الحكومية تؤدي دور المصافي لإزالة الروايات التاريخية غير المصرَّح بها ونشر الحقائق التي تسمح بها الدولة، وبما أن الترقية في مؤسسة تدريس التاريخ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالتزام الخط الرسمي، فإن المؤرخين لم يجدوا حافزاً للعمل على كتابة نقدية للتاريخ.

وبدلاً من ذلك، دأب المؤرخون العرب والإسرائيليون على الكتابة بنمط قومي غير نقدي. ففي إسرائيل، عكس المؤرخون ذوو النزعة القومية، في كتاباتهم، الذاكرة الجماعية للرأي العام الإسرائيلي بتصويرهم الحربَ على فلسطين بأنَّها كفاح مرير من أجل البقاء، ونصر يكاد أن يكون معجزة. وفي العالم العربي اتّسمت روايات تاريخ الحرب الفلسطينية بإنشاء العبارات الاعتذارية، وعبارات إرضاء الذات، وتوجيه اللوم إلىٰ الآخرين، ونظريات المؤامرة. فالكتابات التاريخية ذات النزعة القومية، سواء لدى العرب أَو الإسرائيليين، تنحو منحى «نشدان الشرعية» أكثر مما تنحو منحى محاسبة الماضي محاسبةً نزيهة[1].

نسيج أساطير

إن عبء إضفاء الشرعية على الأعمال القومية في حرب فلسطين، في قاعات السياسة كما في فصول المدارس، قد تسبّب في الخلط بين كتابة التاريخ والنزعة الوطنية في ما يمكن تسميته «التاريخ الرسمي»[2]. إن الاختراع السياسي للتاريخ هو صفة مشتركة بين إسرائيل والدول العربية، ولو أن ذلك يعود إلىٰ

---

(1) سِمحا فلابان، «ولادة إسرائيل، الأساطير والحقائق» The Birth of Israel: Myths and Realities، (نيويورك 1987)، أبراهام سيلا «الكتابة العربية لتاريخ حرب 1948: السعي للشرعية»، وفي كتاب لورنس سيلبرشتاين «نظرات جديدة على تاريخ إسرائيل: أوائل سنوات الدولة» New perspectives on Israeli History: The early years of the state (نيويورك، 1991) ص: 124 ـ 54.

(2) أ. ج. هوبسباون يحلّل تناظر تغذية الروح القومية في أوروبا في كتابه «الأمم والقومية منذ سنة 1780: البرامج ـ الأسطورة والواقع» Nations and Nationalism Since 1780: Programme, Myth, Reality (كامبردج، 1990) ص ص: 85 ـ 91. للاطلاع على الاستخدامات المختلفة للتاريخ من أجل تحقيق الولاء المدني في الجمهورية الفرنسية الثالثة والإمبراطورية الألمانية الثانية، راجع كتاب هوبسباون «إنتاج التقاليد على نطاق واسع: أوروبا، 1870 ـ 1914»، في كتاب إريك هوبسباون وتيرنس رينجر «ابتكار التقليد» The Invention of Tradition (كامبردج 1984) ص: 272 ـ 274.

أسباب مختلفة، فروايات التاريخ الرسمية العربية ترمي إلىٰ تعزيز مصالح الدولة بواسطة تعبئة المواطنين الذين زالت أوهامهم نتيجة لهزيمة جيوش بلدانهم وفقدان فلسطين العربية، في حين أن روايات التاريخ الرسمية الإسرائيلية تسعى إلىٰ تثبيت المصير الصهيوني الجلي، ولكن مع تخفيف المسؤوليّة عن العواقب السلبية للحرب. هذه الممارسة حملت جيلاً جديداً من المؤرخين الناقدين على النظر إلىٰ الروايات التاريخية عن سنة 1948 بأنَّها نسيج من الأساطير.

إن جماعة من الباحثين الإسرائيليين قادت منذ أواخر الثمانينيات من القرن العشرين حملة على أساطير إسرائيل التأسيسيَّة. إن التاريخ الإسرائيلي النقدي الجديد كان الحافز إليه الغزو الإسرائيلي للبنان في سنة 1982، عندما سعت حكومة حزب الليكود إلىٰ إيجاد استمرارية تاريخية بين أعمالها المثيرة للجدل في لبنان وأعمال الآباء مؤسسي إسرائيل في فلسطين سنة 1948.

من المهم أن نذكر أن رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الحين، مناحيم بيغن، استند في دفاعه عن أعمال حكومته إلىٰ سياسات داڤيد بن غوريون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، في سنة 1948، وقد ادّعى بيغن أن الفارق الوحيد بينهما هو أن بن غوريون لجأ إلىٰ الخداع والتورية، في حين أنه هو ينفِّذ سياسته على المكشوف. واستشهد بخطة بن غوريون لتقسيم لبنان عن طريق إقامة دولة مسيحية شمال نهر الليطاني، وجهوده التي بذلها دون هوادة لمنع قيام دولة فلسطينية. وكذلك خلال حرب 1948، تدميره تدميراً شاملاً قرى وبلدات عربية ضمن حدود إسرائيل وطرد سكّانها من البلد، كل ذلك من إجل إقامة دولة يهودية صافية[3].

إن كلام بيغن حرّك، عن غير قصد، إعادة تقييم أصول إسرائيل. إن حرب الاستقلال، وهو الاسم الذي يطلقونه في إسرائيل على حرب 1948، تسامت دائماً على الجدل. والباحثون، الذين كان دافعهم في حالات عديدة

(3) فلابان «ولادة إسرائيل» ص 5.

تبرئة اسم بن غوريون والحطّ من قدر بيغن، بدأوا يلقون نظرة على هذه الحملات التي استهدفت تدمير القرى وطرد السكّان على نطاق واسع. وقد ساعدتهم في ذلك سياسة ليبرالية لحفظ الوثائق (الأرشفة) التي بموجبها يفرج عن الوثائق الحكومية لتكون موضع تدقيق من عامة الناس، بعد مرور ثلاثين سنة، الأمر الذي أتاح الاطلاع على كمية ضخمة من الوثائق الخاصة بحرب 1948 وذيولها. وقد برهنت المحفوظات الإسرائيلية أنها كاشفة إلىٰ حد كبير.

لقد وضع سِمحا فلابان Simha Flapan جدول الأعمال عندما قلّص الكتابة التاريخية حول تأسيس دولة إسرائيل في سنة 1948 إلىٰ سبع أساطير هي: أن الصهيونيين قبلوا قرار التقسيم الصادر عن الأُمم المتّحدة بينما كانوا يخطّطون للسلام، وأن العرب رفضوا التقسيم وشنّوا الحرب، وأن الفلسطينيين هربوا طوعاً وفي نيّتهم العودة منتصرين، وأن الدول العربية وحّدت صفوفها لطرد اليهود من فلسطين، وأن الغزو العربي جعل الحرب أمراً لا مفر منه، وأن إسرائيل المفتقرة إلىٰ وسائل الدفاع عن نفسها كانت تواجه الدمار على يد غولياث العربي، وأن إسرائيل بالتالي سعت إلىٰ السَّلام فلم يتجاوب مع سعيها أي مسؤول عربي. ثمة أساتذة إسرائيليون آخرون تناولوا هذه المواضيع بتوسّع. أحدهم بني موريس الذي قدّم أول دليل موثق يبين مسؤوليَّة إسرائيل عن هرب الفلسطينيين من منازلهم[4]. إن آڤي شلايم قلب أسطورة غولياث العربي وقدّم وثائق بشأن عروض سلام قدّمها إلىٰ إسرائيل الملك عبد الله ملك الأردن وحتى الزعيم السوري حسني الزعيم[5]. وبيّن إيلان پاپيه Ilan Pappé أن بريطانيا كانت أبعد ما تكون عن منع قيام دولة يهودية كما تحاجج كتابة التاريخ الصهيونية، بل كانت تسعى بدلاً من ذلك إلى منع قيام دولة فلسطينية[6]. إن العواقب

(4) «نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين»، 1947 ـ 1949 (كامبردج، 1988).

(5) تواطؤ عبر نهر الأردن، الملك عبد الله والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين (أُكسفورد 1988).

(6) «بريطانيا والصراع العربي ـ الإسرائيلي» 1948 ـ 51، (لندن 1988).

الاجتماعية لاختلاق الأساطير من قبل الدولة كانت بدورها موضع نقد من قبل زئيف شترنْهل Zeev Sternhell[7]. إن هذه الأعمال أثارت جدلاً واسعاً داخل إسرائيل، وأصبح مؤلفوها مجموعة تتسم بالوعي الذاتي ويشار إليها باسم «المؤرخين الجدد» أو «علماء الاجتماع الناقدين»[8].

لقد كان هناك دائماً تقليد نقدي في الروايات العربية لتاريخ 1948، ولو أن النقد في أي بلد عربي بذاته كان في الأغلب موجهاً ضد أعمال الدول العربية الأخرى. إن المفكرين العرب، سعوا مباشرة بعد نتيجة الحرب التي أطلقوا عليها اسم «النكبة»، إلىٰ تفسير هزيمة العرب بأنَّها ناجمة عن عيوب المجتمع العربي بصورة عامة. وقد كان قسطنطين زريق، وساطع الحصري، وموسى العلمي، وجورج حنا، بين أكثر هؤلاء المفكرين تأثيراً، وحظيت أعمالهم بتداول واسع في العالم العربي. يقول وليد الخالدي محاججاً: «مع ذلك فإن هذه الكتب لم تتمكّن من أن تمحو وتدفن إلىٰ الأبد أساطيرنا عما حدث في حرب 1948، بالرغم من تداولها على نطاق واسع». وفي حين أن الخالدي يطلق صفات متماثلة على كتابة التاريخ لدى إسرائيل والعرب، فإن تلخيصه للأساطير العربية جدير بالاستشهاد به مطولاً، فهو يقول:

«إن أبرز الأساطير العربية عن حرب 1948، ومعظمها يستمر تداوله حتى يومنا هذا، تصوير القوات الصهيونية بأنَّها مجرد عصابات إرهابية كانت مطوقة من كل الاتجاهات من قِبل الجيوش العربية في المرحلة الأولى من الحرب (15 أيار/ مايو ـ 11 حزيران/ يونيو). إن طليعة القوات المصرية وصلت إلىٰ ضواحي تل

(7) «الأساطير المؤسّسة لإسرائيل: القومية ـ والاشتراكية، وصنع الدولة اليهودية». (برنستون، نيويورك 1998).

(8) بني موريس، «كتابة التاريخ الجديدة: إسرائيل وماضيها» في كتاب موريس «1948 وما بعد، إسرائيل والفلسطينيون» (أكسفورد 1994) ص: 1 ـ 48. وآفي شلايم «النقاش حول 1948» المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط العدد 27 (1995) ص: 287 ـ 304.

أبيب الجنوبية، ووصلت القوات العراقية الزاحفة قريباً جداً من ساحل البحر الأبيض المتوسط غربي قلقيلية وطولكرم، بينما وصل الجيش الأردني إلىٰ الضواحي الشرقية لمدينة تل أبيب. وكل ما كان مطلوباً هو بضعة أيام أخرى لتوجيه ضربة قاضية إلىٰ العدو تحسم الموقف بصورة نهائية، عندما تصاعد الضغط الدولي إلىٰ تهديدات وأخطار، الأمر الذي فرض الهدنة الأولى على العرب. وهكذا فإن الكيان الصهيوني انتزع النصر من فكّي هزيمة محتمة»[9].

إن علماء التاريخ الإسرائيليين وجَّهوا اهتمامهم إلىٰ كتابة التاريخ عند العرب، ربما نتيجة لتوجه هؤلاء العلماء إلىٰ نقد الذات من الناحية التاريخيَّة. إن عمانويل سيفان، في تحليله لأساطير العرب السياسية، رأى في تكرار مواضيع كالحروب الصليبيَّة رمزاً إلىٰ معركة مستمرة بين العرب المسلمين وأعدائهم في أرض فلسطين المقدَّسة، والأهمية الرمزية المعطاة للقدس، مثالين لهما علاقة خاصة بنمط التفكير العربي عقب حرب فلسطين[10]. أما أبراهام سيلا، الذي درس بمزيد من التوسّع الكتابة العربية لتاريخ 1948، فقد رسم متوازيات بين الروايات العربية والإسرائيلية. وهو، شأنه شأن الروايات الإسرائيلية السابقة لتاريخ 1948، يحاجج بقوله: «إن كتابة العرب لتاريخ حرب 1948 تتألَّف بصورة طاغية من أدبيات غير أكاديمية اعتمدت في معظم الحالات على الذاكرة الجماعية أكثر من اعتمادها على الكتابة النقدية للتاريخ».

ويقول سيلا إنَّه، بسبب عدم القدرة على بلوغ التكافؤ العسكري مع إسرائيل أو تحقيق خطة العرب القومية لتحرير فلسطين، «فإن تاريخ حرب 1948 هو جزء أساس من «عمل لم يبلغ نهايته بالنسبة للقومية العربية»»[11].

---

(9) وليد خالدي «خمسون عاماً على حرب 1948، أولى الحروب الصهيونية ـ العربية» (بيروت 1998) ص: 13 ـ 14.

(10) أساطير سياسية عربية (باريس 1995).

(11) سيلا «كتابة التاريخ العربية» ص: 125 ـ 146.

الدول العربية والقومية العربية

إن أحد تفسيرات المثابرة على ظهور الأساطير القومية في الكتابة العربية لتاريخ 1948 يكمن في التمييز بين القومية الأضيق للدولة ـ الأمة، والقومية العربية الأوسع. إن التجربة الاستعمارية في سنوات ما بين الحربين العالميتين أعطت دفعاً للمملكة العربية الكبرى التي تَخَيَّلَها الشريف الحسين بن علي الهاشمي خلال الحرب العالمية الأولى. إن تقسيم «الهلال الخصيب» إلىٰ دول متمايزة تحت الانتدابين البريطاني والفرنسي كان معناه أن النزاعات القومية استمرت ضمن حدود الدول العربية الجديدة بدلاً من أن تكون على المستوى القومي العربي الشامل، وهكذا فقد استُخدم التاريخ لبث الروح الوطنية في نفوس المصريين، والعراقيين، واللبنانيين، والسوريين، ولكن ليس على حساب هويتهم المشتركة باعتبارهم عرباً. ولدى حصول هذه الدولة على استقلالها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، كانت النخب السياسية قد انبثقت بما لها من مصالح أرادت حمايتها ضمن الحدود التي رسمتها السلطات الاستعمارية. إضافة إلىٰ ذلك، لم يكن هناك مُنافح ذو شعبية عن القومية العربية بمعناها الشامل. إن الدعوات التي أطلقها الأمير عبد الله بن الحسين لإقامة اتحاد سورية الكبرى لم تلق إلاَّ القليل من الجاذبية الأيديولوجية على المستوى الشعبي، بل نظر إليها الناس كمحاولة لتوسع شرق الأردن إقليمياً. والعروبة بمعناها الشامل لم يكن لها إلاَّ ظهور رمزي في الكلام البلاغي الرسمي في مصر، وسورية، ولبنان، والعراق[12]. كما أن جامعة الدول العربية، التي تأسَّست في 21 آذار/ مارس 1945 لم تقم بعمل لتجاوز المصالح القطرية الفردية.

وينبغي ألا يُفاجئ أحداً القولُ إن الدول العربية قاتلت في حرب فلسطين

---

(12) سيلفيا حاييم «القومية العربية: دراسة في التأليف» (بيركلي، كاليفورنيا، 1962)، ومايكل دوران «العروبة قبل عبد الناصر: الوطنية المصرية والسياسة المصرية والقضية الفلسطينية» (نيويورك 1999).

بمفاهيم قطرية محضة، مسترشدة ببرامجها الداخلية ومصالحها القطرية. وفي حين كان القادة العرب يتحدَّثون عن ضرورة حماية فلسطين العربية من التقسيم، كان الملك فاروق يضع مصالح مصر في المقام الأول، والملك عبد الله فعل مثل ذلك بالنسبة لمصالح شرق الأردن، والرئيس القوتلي بالنسبة لمصالح سورية، وهذا ما فعله أيضاً القادة الآخرون بالنسبة لمصالح بلدانهم. إن العديد من القادة العرب الذين كان يراودهم الخوف على الاستقرار الداخلي في بلدانهم، لم يخصُّوا «النضال المشترك» ضد إسرائيل إلاَّ بجزء يسير من قواتهم المسلّحة. ولم يكن السَّبب أن رؤساء الأركان العرب فشلوا في تنسيق خططهم للمعركة، وإنما رفضوا أيضاً رفضاً قاطعاً أن يضعوا قوّات بلدانهم تحت قيادة دولة أخرى. وأسوأ من عدم رفع راية الأمة العربية، أن الجيوش العربية كادت أن تتصادم حول حجم وموقع القوات التي ترفع أعلامها الوطنية عندما كانت ترسل قوات من دول عربية مختلفة للمأوى في نفس المدينة. وما من بلدٍ عربي كان مستعداً أن يجازف بإرسال قواته لإنقاذ دولة عربية «شقيقة» تتعرّض لهجوم إسرائيلي. وعندما حلّ ما حلّ بالدول العربية أخذت كل دولة عربية تتفاوض بشأن هدنتها مع إسرائيل دون اهتمام بالتنسيق العربي الشامل.

ومع بدء كتابة الروايات الأولى عن حرب فلسطين في الخمسينيات من القرن العشرين، كانت القومية العربية هي موضوع البحث القومي السائد في العالم العربي. إن الهزيمة في فلسطين والإطاحة بالأنظمة القديمة المسؤولة عن «النكبة» قد جعلتا الرأي العام العربي مشدوداً إلىٰ برنامج القومية العربية. وقد أتيح آنذاك للقومية العربية مُنَافِحٌ يتمتع بالشعبية وبسحر الشخصية (كاريزما) على نحو لافت للنظر. إن الرئيس المصري جمال عبد الناصر قد حظي بتأييد شعبي ليس في بلده فحسب بل في سائر الأراضي العربية. إن القوميين العرب حقَّقوا المصالح الذاتية الضيِّقة للقادة العرب في سنة 1948، وتوجهوا بسورة غضبهم ضد الذين خلفوهم في الأردن، وسورية، ولبنان، والعراق. غير أنّه ثبت أن

القوميين العرب لم يكونوا أكثر فاعلية في تحقيق تحرير فلسطين أَو إلحاق الهزيمة بإسرائيل، من أسلافهم. وقد أدَّى ذلك إلىٰ توجهين في كتابة تاريخ 1948: إن الدول العربية المدافعة عن نفسها تبنّت «أسلوباً اعتذارياً موجهاً نحو تعزيز الشرعية السياسية» في حين أن القوميين العرب أخذوا يكتبون هذا التاريخ «بأسلوب النقد الذاتي الذي كان يرمي إلىٰ استخلاص دروس تاريخية وتحفيز إجراء تغيير اجتماعي جذري وتغيير سياسي أَو أيديولوجي استعداداً للجولة التالية ضد إسرائيل»[13]. غير أن كلا الطرفين لم يهتما كثيراً بالدقَّة التاريخية لرواياتهما.

ميزة المنتصر

رغم أن هناك بالتأكيد مجالاً لروايات تاريخية عربية جديدة عن حرب فلسطين، فإن المفكرين العرب يفتقرون إلىٰ المادة للقيام بهذه المهمة، وخلافاً لما هي الحال في إسرائيل، لا يوجد في الدول العربية قانون «الثلاثين سنة» الذي يحكم رفع السرِّيَّة عن الوثائق الحكومية. وحتى الآن لا توجد مواد وثائقية عن حرب فلسطين في مصر، أَو الأردن، أَو العراق، أَو سورية أَو لبنان. وبالتالي لا توجد إمكانية فورية لرفع السرِّيَّة عن وثائق في هذه الدول. وهذا ما حمل الكتّاب على اللجوء إلىٰ المصادر المتاحة، والقيام، في أحسن الحالات، بتفسيرها تفسيراً جديداً يعكس التبدلات في الحقائق السياسية على مدى السنوات الخمسين التي تفصلنا عن أحداث حرب فلسطين. فقد كتب المؤرِّخ الفلسطيني وليد الخالدي سلسلة أعمال تتعلَّق بنصف القرن الذي انقضى منذ قرار الأُمم المتّحدة الخاص بتقسيم فلسطين وحرب سنة 1948 مستنداً إلىٰ الوثائق التي جمعها هو شخصياً عبر السنوات الماضية، دون أية حاشية أَو مرجع يوثق النصوص التي كتبها[14]. أما الصحفي المصري محمَّد حسنين هيكل فقد

(13) سيلا «كتابة التاريخ العربية» ص 125.

(14) «الصهيونية في مئة عام 1897 ـ 1997»، «خمسون عاماً على تقسيم فلسطين 1947 ـ 1997»=

رجع إلىٰ مذكراته اليومية التي دوّنها خلال الحرب مستنداً إليها في إعادة تقييمه لحرب فلسطين[15]. وحتى في حالة وجود مواد محفوظات وثائقية، كأوراق البلاط الهاشمي في الأردن، كان الاطلاع عليها محصوراً قطعاً بمؤرخي القصر لكي يقوموا بتحرير ونشر وثائق تعزِّز الخط الرسمي للحكومة الأردنية بشأن حرب فلسطين[16]. إن الباحثين العرب لا يجدون سنداً لهم لإجراء مراجعة نقدية للروايات التاريخية الوطنية في بلدانهم. وحقيقة الأمر أن كثيراً من الدول العربية تَقْصُرُ حرية التعبير على طرق تحول دون البحث العلمي النقدي. وهكذا، فإنه بعد مرور عقد من السنين على نشر الروايات التاريخية الإسرائيليَّة النقدية الكبرى عن حرب فلسطين، لا توجد حتى الآن أدبيات بأقلام باحثين في الجانب العربي!.

إن الصلة بين رواية تاريخيَّة وطنية والشرعيَّة السياسية للدولة تجعل أي تَحَدٍ للحقائق الرسمية أمراً قابلاً للجدل. إن الحجج التي قدَّمها المؤرخون الإسرائيليون الجُدد قد أثارت نقاشاً ضخماً في إسرائيل انطلق من الندوات الأكاديمية منتقلاً إلىٰ الصحافة ووعي الرأي العام. ولما كان التحدي قد جاء من الأكاديميين الإسرائيليين الذين وجدوا موادهم الأكثر إثارة للجدل في المحفوظات الإسرائيلية، مما جعل النتائج التي توصل إليها المؤرخون الإسرائيليون الجُدد أشد مدعاة للانزعاج لدىٰ الرأي العام الداخلي في إسرائيل.

ومع ذلك، فإن حرية هذا النقاش هي مقياس لأمن المؤسَّسات السياسية الإسرائيلية. ذلك أن صيانة حق حرية التعبير تتطلَّب قدراً كبيراً من الاستقرار السياسي لصيانته في مواجهة الحقائق التي تقرّها الدولة. ولعله بسبب خروج

= (بيروت، 1998) دير ياسين (بيروت 1998) «خمسون عاماً على حرب 1948» (بيروت 1998).

(15) «العروش والجيوش: هكذا انفجر الصراع في فلسطين» المجلد الأول (القاهرة 1998).

(16) محمد عدنان البخيت، وهند أبو الشاعر ونوفان رجا السوارية «الوثائق الهاشمية، أوراق عبد الله بن الحسين» المجلد الخامس، فلسطين، 1948. (عمان 1995).

إسرائيل منتصرة في سنة 1948 وفي النزاعات العربية ـ الإسرائيلية اللاحقة؛ تمكّن المؤرخون الجُدد من تحدّي ما رسخ في الذاكرة الشعبية التي كانت أسيرة ما رواه المؤرخون التقليديُّون، دون أن يلحقوا الضرر بإيمان الرأي العام بشرعية المؤسَّسات المدنية والعسكرية لدولة إسرائيل. إن المثل القديم القائل إن التاريخ يكتبه المنتصرون، لا ينطبق تماماً على هذه الحالة. فإذا أخذنا في الاعتبار أن الدول العربية المهزومة كتبت رواياتها التاريخية الخاصة عن حرب فلسطين، فقد يكون التعبير الأقرب إلىٰ الدقَّة أن نقول إن «إعادة النظر النقدية» في تاريخ أمةٍ ما، هو ميزة يحظى بها المنتصر.

عند حلول الذكرى السنوية الخمسين لحرب فلسطين، كانت عشرون سنة قد انقضت على قيام سلام بين مصر وإسرائيل، وأربع سنوات على قيام سلام بين الأردن وإسرائيل. كما أن الفلسطينيين والإسرائيليين كانوا قد تبادلوا الاعتراف وأوجدوا إطاراً للسلام سمح لرئيس منظمة التحرير الفلسطينيَّة ياسر عرفات أن يعود إلىٰ منطقة حكم ذاتي ضيِّقة ومجزَّأة في قطاع غزّة والضفَّة الغربيّة. ومع انتهاء القتال، أدَّى مستوى جديد من التفاعل بين العرب والإسرائيليين إلىٰ تقويض الأهداف التي كانت مصدر معلومات الروايات التاريخية التقليديَّة السَّابقة للصراع العربي ـ الإسرائيلي. ومع انعدام إمكانية تحرير فلسطين وعدم إمكان حدوث جولة جديدة في الحرب مع إسرائيل، صارت الأُسس الأيديولوجية للتاريخ القديم غير ذات علاقة. إن النسيج القديم للأساطير يكاد أن يكون الآن هدَّاماً للاتجاه الذي سلكته دول المجابهة السَّابقة، والقول إن العرب بحاجة إلىٰ الإقدام على فحص نقدي لتاريخهم ليس دعوة تبسيطية لتقليد النقاشات التاريخية التي جرت في إسرائيل منذ الثمانينات من القرن العشرين، بل إنَّه إقرار بأن التاريخ الذي لم يعد يحظى بالمصداقية لا يخدم إضفاء الشرعية على الدولة، ولا يلهم مواطنيها، ولا يزوّدهم بالمعلومات. إن الذين أسهموا في تأليف هذا الكتاب يقترحون، كخطوة أولى، إعادة كتابة تاريخ حرب فلسطين.

إعادة كتابة تاريخ حرب فلسطين

إن هذا الكتاب يعيد فحص الدور الذي أداه جميع المشاركين في حرب فلسطين، على أساس مصادر المحفوظات الوثائقيَّة حيثما وُجدت، وعلى أساس المواد الجديدة التي دخلت ميدان الرأي العام، من قبيل المذكرات والمعلومات من منابعها الأولى التي وجدت طريقها إلىٰ النشر.

وهذه المجموعة من شأنها أن تؤدي إلىٰ تلاقي كبار المؤرخين الإسرائيليين الجدد والباحثين المختصين بالشرق الأوسط من عرب وغربيين، لإعادة النظر في حرب سنة 1948 من منظور كل من البلدان التي كان لها ضلع في الحرب. ويعالج المؤلِّفون، في أحوال كثيرة، قضايا أثارها المؤرخون الإسرائيليون الجُدد تتعلَّق بإدارة الحرب، والدبلوماسية بين إسرائيل والدول العربية. بيد أن المقالات التي كتبت عن الدول العربية اعتمدت قصداً على مصادر محلية لإعادة فحص التاريخ من منظور عربي. ولكن ندرة المواد الجديدة تحد من مدى عملية التنقيح. إذ يقدِّم المؤلِّفون أعمالهم آملين أن تتوفَّر في المحفوظات (الأرشيف) العربية وثائق رسمية تسمح بإجراء مراجعة تدقيقيَّة أشمل للصراع العربي ـ الإسرائيلي.

هذه المجموعة تحتوي على مقالات عن جميع الدول العربية التي شاركت في حرب فلسطين باستثناء دولة واحدة: هي لبنان. وبالرغم من أقصى الجهود التي بذلها محرِّرو المقالات فقد ثبتت استحالة العثور على مساهم لتقديم بحث عن دور لبنان في الحرب. وتظل العلاقات اللبنانية ـ الإسرائيلية موضوعاً حسَّاساً للغاية في آخر جبهة نشطة من جبهات الصراع العربي ـ الإسرائيلي، والتي تفاقم وضعها بسبب تاريخ تعاون بعض الموارنة مع الصهيونية، واحتلال إسرائيل لشريط واسع في جنوب لبنان، ونفوذ سورية على سياسة لبنان الخارجية. لقد نشرت دراستان حول «العلاقة الخاصة» الصهيونية ـ المارونية على أساس مصادر إسرائيلية. إن لورا ايزنبرغ نشرت بحثاً في

الدبلوماسية التي أدّت إلىٰ معاهدة صهيونية ـ مارونية أجهضت على الفور في سنة (1946)[17]، وألقى كيرستين شولتزه نظرةً على استمرار المحاولات الإسرائيلية للتدخّل في شؤون لبنان الداخلية[18]. وقد ترجم كِلا العملين إلىٰ اللغة العربية ونُشرا في بيروت، مع أن كتاب شولتزه صُودر، على نحو ينذر بالشر، من قِبل الرقابة اللبنانيّة، ووجهت قوى أمن الدولة إلىٰ المؤلِّف تهمة «التحريض على فتنة طائفية»[19]. ولم يكن في أي من العملين الكثير من الكلام عن دور لبنان العسكري في حرب سنة 1948، وهو دور كان في الحدود الدنيا. لقد أرسل لبنان وحدة عسكرية رمزية من ألف جندي اجتازت الحدود إلىٰ شمال منطقة الجليل فصدّتها القوات الإسرائيلية التي احتلت بدورها شريطاً من الأرض في جنوب لبنان وظلت تحتله إلىٰ أن وَقَّعَ الجانبان اتفاقية هدنة في 23 آذار (مارس) 1949. بيد أن لبنان قام بدور سياسي هام في الإعداد للحرب. لقد كان رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح مُجَلجِلاً في خطبه البلاغية الداعية إلىٰ نصر شامل في فلسطين. وحقيقة الأمر، أن الصلح كان موضع انتقاد من قِبل القادة الآخرين لأنّه كان الأكثر حدّة في كلامه خلال اجتماعات جامعة الدول العربية في حين أن بلده كان الأصغر مساهمة في ميدان المعركة. إن اتجاه الرئيس بشارة الخوري المحافظ، وجلجلة رئيس وزارئه، وطبيعة العلاقات المارونية ـ الصهيونية، وتجربة لبنان في ميدان المعركة والاحتلال الإسرائيلي الذي استمر مدة قصيرة، توفر مادة لرواية استقلالية لبنانية تخلب الألباب، لسنة 1948، وهي رواية يبدو أنّه لا بدّ لها من انتظار مناخ سياسي أكثر ملاءمة.

إن معظم المقالات في هذا الكتاب تطرح تاريخاً وطنياً لـ: فلسطين، إسرائيل، مصر، الأردن، العراق، سورية. هنالك استثناءان هما؛ إعادة بحث

---

(17) «عدو عدوي: لبنان في الخيال الصهيوني المبكر، 1900 ـ 1948». (ديترويت، متشغان، 1994).

(18) «دبلوماسية إسرائيل المستترة في لبنان» (لندن، 1998).

(19) كما وردت في صحيفة ديلي ستار اللبنانية باللغة الإنكليزية، عدد 27 شباط/ فبراير 1999.

نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين من قبل بني موريس، ودراسة ليلى پارسونز حول موضوع الدروز في حرب فلسطين. إن الدراسة الأصلية التي كتبها بني موريس أثارت جدلاً ضخماً، سواء من جانب الإسرائيليين الذين اعتقدوا أنه يسفِّهُ بلده، ومن جانب الفلسطينيين الذين كانت حجتهم أن المادة الوثائقية التي كشفها بني موريس كانت أكثر ذمّاً لأعمال إسرائيل من استنتاجات بني موريس القائلة «إن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين نجمت عن الحرب، وليس عن تدبير»[20] وخلال السنوات التي انقضت بعد نشر كتاب «الولادة» The Birth، رُفِعت السِّرِّيَّة عن عدد كبير من الوثائق الإسرائيلية الجديدة، وبخاصّة المحفوظات الوثائقيَّة للقوّات الإسرائيلية ووزارة الدفاع الإسرائيلية، ويعالج بني موريس في إعادة تقييمه لخروج الفلسطينيين في سنة 1948 إحدى النقاط الأكثر إثارة للجدل والتي أثارها الناقدون الذين سبقوه: أي التفكير الصهيوني في «عملية النقل ـ الترانسفير»، أي طرد الفلسطينيين من الأراضي التي تضمهم لإقامة الدولة اليهودية العتيدة. بني موريس يوثّق نقوله. فالفكر الصهيوني حول الموضوع يمضي من «العشوائية» إلى إجماع مفترض تأييداً للفكرة من سنة 1937 فما بعد، التي جرى عليها الإسهام في ما حدث سنة 1948». أما الجزء الثاني من أطروحته فإنه يبحث في تهجير الفلسطينيين من شمال منطقة الجليل في عمليَّة حيرام (28 ـ 31 تشرين الأول، أكتوبر 1948)، مع دليل واضح على الفظائع التي اقترفتها القوات الإسرائيلية ضد القرويين الفلسطينيين. غير أن بني موريس يستمر في رفضه الربط بين «التفكير بالترانسفير» و«سياسة» الطرد، منكراً

(20) موريس «الولادة» The Birth ص 286. من بين النقاد الإسرائيليين، كاتب سيرة حياة بن غوريون، شابتاي تيفيث نشر سلسلة مقالات في جريدة هآرتس اليومية الإسرائيلية (7، و14، و21، نيسان/ أبريل، و19 أيار/ مايو، 1989) و«اتهام إسرائيل بالخطيئة الأصلية» تعليق (أيلول 1989)، أحد الذين قالوا إن موريس لم يذهب بعيداً بما فيه الكفاية، راجع كتاب نورمان فنكلشتاين «أساطير، قديمة جديدة» Myths, Old and New ومقال نور مصالحة «نقد بني موريس» مجلة دراسات فلسطينية 21/ 1 (1991) ص: 66 ـ 97.

وجود أي قرار اتخذته الهيئات التنفيذية لليشوف (أَي اليهود الأوائل في فلسطين) باتباع «سياسة» طرد عامة خلال حرب 1948.

تختلف ليلى پارسونز مع هذا الاستنتاج على أساس إجراءات إسرائيل ضد الدروز، مركّزة أيضاً على عمليَّة حيرام. وتوثق پارسونز علاقة خاصة قامت بين اليشوف والدروز في زمن الانتداب وتطورت إلىٰ «تحالف سري في زمن الحرب» مع حلول سنة 1948. وهي تحاجج قائلة إن الأمثلة العديدة على التعاون الدرزي ـ الإسرائيلي خلال الحرب وعدم طرد أحد من الدروز من قراهم، يقوّض ادعاءات بني موريس بشأن عشوائية طرد الفلسطينيين. وحقيقة الأمر هي أنّه حتى لو حدث في قرية واحدة أن خرق الدروز الفلسطينيون اتفاقاً ما قبل المعركة وقاتلوا ضد الجيش الإسرائيلي، فإن القرويين الدروز لم يطردوا بعد المعركة. وتقول ليلى پارسونز إنَّه إذا كان قد سمح للدروز بالبقاء عن قصد، فهذا يعني بصورة ضمنية على أقل تقدير «سياسة ثابتة جزئياً ترمي إلىٰ طرد المسلمين». ومن الواضح أن ثروة الوثائق في المحفوظات الإسرائيلية لا تزال تترك مدى لتباينات في التفسير بين الباحثين.

أما إدوارد سعيد، في مقالته التي جاءت خاتمة للكتاب، فإنّه يبحث في عواقب حرب 1948 بعد مرور خمسين سنة. إن عدم التوازن بين القوة العسكرية الإسرائيلية وقوة المؤسَّسات الإسرائيلية من جهة، والجهود الفلسطينية لإقامة دولة في غزّة وفي أجزاء من الضفَّة الغربيّة، يجعل حل الدولتين الذي أرادته الأُمم المتّحدة في قرار التقسيم الصادر سنة 1947 موضع تساؤل. يقول إدوارد سعيد: إن الحل الأمثل للفلسطينيين قد يكون في دولة ثنائية القومية. ومع قلَّة المدافعين عن هذه الرؤية في أي من الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني، تكون فكرة إدوارد سعيد قد طُرحت قبل أوانها. والحقيقة هي أن هذه الفكرة قد تكسب أرضية لها عندما يختار جيل جديد من الباحثين، بعد نصف قرن من الآن، إعادة النظر في تاريخ حرب فلسطين بمناسبة ذكرى مرور قرن عليها.